الديانة الهندوسية وقدوم الإسلام إلى الهند

الباحث: محمد هشام بوتكدان

هيئة تنسيق الكليات الإسلامية- جنوب الهند

التمهيد:

طلعت شمس الإسلام بجزيرة العرب، وأضاءت بأنوارها سهول الأرض وجبالها، وامتدت أشعتها إلى ما وراء بلاد العرب شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، حتى استاضاء بنورها أكثر بقاع الأرض. ولقد تنورت الهند بنور الإسلام في القرن الأول من الهجرة وتشرفت بأقدام الجيل الأول من المسلمين العرب. وهذا البحث عن قدوم الإسلام إلى الأراضي الهندية يتحدث موجزًا عن أوضاع الهند قبل قدوم الإسلام وبعده وكيفية دخول الإسلام وبعض آثاره على المجتمع الهندي.

المطلب الأول- الديانة الهندوسية قبل قدوم الإسلام:

إن الديانة الهندوسية عبارة عن مجموعة من الآلهة والمعبودات العديدة مع الملاحم المتعلقة بها، ومن النظام الاجتماعي المتمثل في الطبقات الأربع، ومن النصوص الفكرية والشعرية والفلسفية في اللغة السنسكرتية. وكان الأول والثاني منها نتيجة مباشرة من التأثير الآري في سكان الهند الأصليين وفي ثقافتهم، بينما الثالث منها نتيجة المعرفة الآرية الوافدة بعضها من موطنهم الأصلي آسيا الوسطى والناجمة بعضها من مهبطهم الجديد الهند[1].

---

(١) Khushwant Singh: A History of Sikhs, 1\17

ويبدو أن سكان شمال الهند الأصليين لم يكونوا على ديانة محددة أو مستقلة، وكانوا يعبدون عددًا من الآلهة الذكور والإناث التي كانت تتمثل أحيانا في العناصر أو القوى الطبيعية التي كانوا يخافون منها، وكانوا يقدِّمون القرابين لتماثيل الحيوانات والزواحف. وكان الآريون يعبدون كل ما هو جميل في الكون، وكانوا يتلون التراتيل للسماء وللرعد والبرق وللشمس عنما تطلع، كما كانوا يقدمون عصير الخمر للبدور. وكانت الآلهة القديمة للسكان الأصليين إما اختفت وراء الستار أو تركت في المؤخرة، ووقعت التغييرات في العلاقات بين الآلهة وفي أهميتها حتى وصلت الآلهة الثلاثة في المقدمة، وهم برهما (Brahma) الخالق ووشنو (Vishnu) الحافظ أو المربي وشيوا (Siva) المهلك، وكان هؤلاء الثلاثة صورة للإله الواحد الذي هو إيشور (Ishwar). وهكذا تطورت فكرة الآلهة لدى الآريين من التعدد إلى الوحدة[1].

ومن نتائج الاحتلال الآري للهند نظام الطبقات الاجتماعي، وقد اخترع الآريون البيض هذا النظام للحفاظ على شرفهم العرقي وللانحطاط من شأن السكان الأصليين السود وجعلهم خدما لهم في مرافق الحياة. وقد قسموا المجتمع على أساس الوظائف المرتبطة بهم إلى ثلاث طبقاتٍ يتمثل فيها نقاءهم العرقي. وكان في طليعة هذه الطبقات البراهمة (Brahmin) الذين جعل النظام من أجلهم، وقد انفردت هذه الطبقة بالرهبانية وقراءة النصوص المقدسة وتعليمها وتعلمها. ويليهم في الترتيب كشتريا (Kshatriya) المقاتلون الذين يدافعون عن أمن البلاد، ثم ويشا (Vaishya) أو التجار ثم شودرا (Shudra) العمال. وكان السكان الأصليون يحرمون من الحقوق الاجتماعية وأجبروا على القيام بكل الأعمال الشاقة، ولكي لا يصل إلى الطبقات العليا جعل من المنبوذين الذين يلزم التطهير والتنظيف إذا مسه من هو أعلى منه طبقة. وكان يعرف هذا النظام الطبقي في المجتمع بالبرهمانية (Brahmanism) لأنهم الذين

---

(١) راجع في هذا المكان: الهند القديمة حضارتها وديانتها للدكتور محمد إسماعيل الندوي ص ٤٤ – ٤٥، وقصة الحضارات لول ديورانت ٣/ ١٩-٢٢.

صوغوه كما أنهم كانوا أكثر استفادةً به من غيرهم[1].

والجانب الأهم من الديانة الهندوسية ليس في آلهتها أو في النظام الاجتماعي، ولكنه في الفلسفة الهندوسية المتمثلة في ويدا (Veda) وشروحها والنصوص الأخرى. رغم أن الآلهة قبلت أو رفضت أو واجه النظام الاجتماعي النقد الشديد من المعتقدات الأخرى إلا أن النصوص المقدسة لم تزل باقية إلى الآن، فقد زودت تراتيل ويدا الشعب الهندوسي بالحياة الروحية، وزودتهم أوبانيشاد (Upanishad) بالتحليل الفلسفي، وزودتهم الملاحم (Epics) بالقيم والأخلاق مما جعلت الهندوسية تواجه التحديات من الديانات الأخرى.

ولا يمكن لديانة تأمر بعبادة آلاف الآلهة والمعبودات وتحط من شأن الإنسان وتحقره وتجعل بعضهم خدما للبعض ولا تعترف بالكرامة والمساواة، ولا يمكن لمثل هذه الديانة أن يقدر زمنا طويلا بالبقاء، فكان صوت المعارضة الأول للبراهمة من ناحية الجينية والبوذية في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد. وبعد مضي مائة عام على وفاة بوذا مؤسس الديانة البوذية محت تعاليمه آثار الهندوسية من شمال الهند حتى أصبحت البوذية الديانة السائدة والقوى الحاكمة في تلك المنطقة.

وكان بداية النهضة داخل الديانة الهندوسية من جنوب الهند بعد القرن التاسع الميلادي، فقامت فرقتان من الصوفية الهندوسية – الألوار (Alvars) والأديار (Adyars) – وبدأتا تهاجمان البوذية والجينية من ناحيتهما الضعيفة وهي خلوّها من العناصر العاطفية في قيمهما وأخلاقهما. فإن رد الفعل الذي أحدثت الجينية والبوذية كان بدوره عنيفًا للغاية، وذلك أنهما كانتا تناديان بنبذ الطقوس وأساليب العبادة كليًا وتركزان اهتمامهما في الحث على الأخلاق الحميدة والتهذيب الروحي[2].

وكانت الألوار (Alvars) الأولى من هاتين الفرقتين الإصلاحيتين تعبد إله وشنو (Vishnu) بينما الثانية منهما وهي الأديار (adyars) كانت تعبد إله شيوا (Siva)،

---

(١) Khushwant Singh: A History of Sikhs, 1\18

(٢) الدكتور همايون كبير: التراث الهندي من العصر الآري إلى العصر الحديث، ص ٧٦.

وكانت كل منهما تمنح لإلهها مكانة القوة العظمى الواحدة التي تسيطر على العالم كله. وكانوا يتسامحون في نظام الطبقات الاجتماعية ويسمحون للمنبوذين والطبقات السفلى المشاركة في العبادة والطقوس مع البراهمة، كما كانوا ينشرون دعوتهم من خلال تراتيل الحب والثناء على الله تعالى[1].

وبدأت الملايين الذين كانوا ينعزلون عن البوذية والجينية لعدم استطاعتهم فهم تعاليمهما والنظريات الأخلاقية المتعلقة بهما بدأوا يرجعون إلى الهندوسية التي كانت تؤمن بالتوحيد ومساواة الإنسان ويمارسون العبادات في التجمعات الكبيرة التي تشارك فيها جميع طبقات المجتمع. وبدأت البوذية تضمحل من المناطق الهندية وتسيطر على البلدان الأخرى من آسيا، بينما الجينية غُمرت في هذه التيارات الإصلاحية واستردت الهندوسية شعبيتها القديمة إلا أنها اضطرت لمواجهة تهديدا آخر في صورة الفتح الإسلامي الذي بدأ ينتشر في جنوب آسيا[2].

المطلب الثاني- قدوم الإسلام إلى الهند:

إن العلاقة بين الهند والبلدان العربية كانت قائمة من قبل الميلاد، وكان التجار العرب واسطة هذه الصلات بأجمعها لأنهم كانوا أكثر أهل البلاد الأجنبية صلةً بالهند، فبلادهم قريبة من الهند التي تقع على ساحل البحر العربي. وكانت سفنهم تقوم بنصيب في نقل التجارة بين الهند وهذه البلاد، ومن الطبيعي إذن أن يكون التجار والبحارة العرب أكثر صلة بالهنود، كما كانت لهم معرفة ودراية بالمدن الهامة الواقعة على الساحل الطويل للبحر العربي، بل كانوا يذهبون إلى ما وراء ذلك في خليج البنغال وبلاد ملايو وجزر إندونيسيا حتى كانت لهم جاليات عربية في بعض ثغور هذه البلاد.

وكان التجار العرب من قديم الزمان هم الوسطاء بين الهند والروم واليونان في ميدان العلاقات التجارية، فما كانت للروم واليونان علاقة تجارية مباشرة مع الهند إلا بعد أن فتح القيصر أغسطس أرض مصر سنة عشرين سنة قبل الميلاد تقريبًا وبدأ الروم

---

(١) Khushwant Singh: A History of Sikhs, 1\19

(٢) Khushwant Singh: A History of Sikhs, 1\19

السيطرة على البحر الأحمر، مع أن محصولات الهند مثل الأرز والفلفل وغيرهما كانت معروفة لديهم ومتداولة في أسواقهم قبل هذه الواقعة لقرون طويلة[1].

وحين ظهر الإسلام ودخل العرب في دين الله أفواجًا كان منهم هؤلاء التجار والبحارة العرب من حضرموت وتريم وبعض المناطق من سلطنة عمان الحالية، فحملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التي يتعاملون معها. وكان من الطبيعي أن يتحدث هؤلاء في حماس وإيمان عن دينهم الجديد وعن الرسول الذي ظهر في بلادهم ويدعو الناس إلى التوحيد والإخاء والمساواة البشرية والمعاملة الحسنة بين الناس جميعًا. وكانت الهند تئن حينئذ – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – من التفرقة ونظام الطبقات القاسي الذي تقوم عليه الديانة الهندوسية، وكان حديث التوحيد والمساواة نغمة جديدة يروقهم سماعها وأن يقارنوا بينها وبينما هم عليه من أوضار التفرقة وأثقالها.

وكانت النتيجة أن تنفتح قلوبهم لهذا الدين وأن يقبلوا عليه ليتخلصوا من العناء النفسي والاجتماعي الذي كانوا يعانونه ومن الوثنية الهندوسية المحشوة بالخرافات والأساطير. ولذا وجد الإسلام في الهند أرضًا خصبةً سهلةً وأصبح في كل ميناء أو مدينة اتصل بها المسلمون جماعة اعتنقوا الإسلام وأقاموا المساجد وباشروا شعائرهم الدينية في حرية تامة لما كان للمسلمين والعرب في ذلك الوقت من منزلة عند الحكام باعتبارهم أكبر العوامل في رواج التجارة الهندية التي كانت تدر على هؤلاء الحكام الدخل الوفير.

وكانت سواحل مليبار (Malabar) الواقعة على البحر العربي في جنوب الهند من أسعد هذه البلاد بالدين الجديد، كما كانت جزيرة سيلان أو سري لنكا (Srilanka) الحالية مكانًا يأوى إليه العرب في طريقهم إلى الهند. ومما يدل على وجود علاقة مباشرة قديمة بين جزيرة العرب وبين منطقة مليبار أن أهالي المناطق الجنوبية من الجزيرة كانوا يأخذون من مليبار أشجار النارجيل (جوز الهند) وأوراق التنبول ويغرسونها في أراضي بلادهم، ولا تزال هذه الظاهرة موجودة في حضرموت وظفار والمسقط وغيرها

---

(١) الدكتور محي الدين الآلوائي: الدعوة الإسلامية وتطورها في شبه القارة الهندية، ص ١٧٠.

من المدن الساحلية التي كانت مراكز المحصولات المليبارية في بلاد العرب[1].

وأما اسم "مليبار" فيتألف من كلمتين: "ملي" و "بار"، وتستعمل كلمة "ملي" أو "مليا" أو "مل" في اللغتين السنسكريتية والدرافيدية (Dravida) بمعنى الجبل[2]. و"بار" كلمة فارسية معناها "الكثير"، فصار معنى كلمة مليبار أو ملبار بلد الجبال الكثيرة. وأول من أطلق اسم مليبار على هذه المنطقة هم الملاحون الذين قدموا إلى موانئها ومدنها الساحلية من الجزيرة العربية وبلاد فارس، ثم تبعهم الجغرافيون العرب، فكان الإدريسي[3] هو الجغرافي العربي الأول الذي سمى هذه المنطقة باسم مليبار[4].

المطلب الثالث- طريق الإسلام إلى الهند:

دخل الإسلام شبه القارة الهندية من طرق ثلاثة من الناحية الجغرافية، فالطريق الأول هو شواطئ الهند الغربية الجنوبية الواقعة في البحر العربي التي كانت – كما سبقت الإشارة إليها – مركز ارتياد التجار والرحل العرب منذ أقدم العصور في البلاد الهندية. والطريق الثاني هو مناطق السند الواقعة على شواطئ الهند الغربية الشمالية في البحر العربي حيث دخل محمد بن قاسم الثقفي[5] في سنة ٩١ هـ فاتحا لبلاد السند في عهد حكم

---

(١) مجلة ثقافة الهند عدد ٣ مجلد ٦ ص ١٩.

(٢) Coins of South India, p 122

(٣) الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطالبي، أبو عبد الله، مؤرخ من أكابر العلماء العرب بالجغرافية، من أدارسة المغرب الأقصى، ولد بسبتة سنة ٤٩٣ هـ ونشأ وتعلم في قرطبة، ورحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صقلية، ومن مؤلفاته: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، والجامع لصفات أشتات النبات، وروض الأنس ونزهة النفس، وأنس المهج وروض الفرج، وقد ترجمت مؤلفاته إلى الفرنسية واللاتينية والإنجليزية والألمانية، توفي سنة ٥٦٠ هـ ويرجح أن وفاته في سبتة. انظر الأعلام للزركلي: ٧/ ٢٤.

(٤) Eliot's History of India, 1/90

(٥) محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، ولد سنة ٦٢ هـ، فاتح السند ووالیها، من كبار القادة ومن رجال الدهر في العصر المرواني، ولاه الحجاج ثغر السند في أيام الوليد بن عبد الملك، عزله سليمان بن عبد الملك بعد وفاة الوليد والحجاج وأمر بحمله من السند مقيدًا فحمل إلى واسط وعذب بها، وتوفي نحو سنة ٩٨ هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٦/ ٣٣٣-٣٣٤.

الحجاج بن يوسف الثقفي[1]. وأما الطريق الثالث فهو مناطق الحدود الشمالية الغربية المجاورة لأفغانستان وإيران حيث دخل الهندَ من هذا الطريق البري الجبلي الوعر السلطانُ محمود الغزنوي[2] في نحو سنة ٣٩٢ هجرية الموافقة لسنة ١٠٠١ ميلادية.

وقد سبق البيان عن تفاصيل الطريق الأول من هذه الطرق الثلاثة، وأما الطريق الثاني فإن الحملات المتقطعة على الشواطئ الشمالية الغربية قد بدأت في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث ولّى منطقة البحرين إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي[3] الذي طوق بلاد الهند من ثلاث جهات بالمجاهدين المسلمين. وجرت حملات بحرية غير منظمة شنت على بلاد الهند، ولكن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يخالف تلك الحملات البحرية بشدة ويعارض الإقدام على هذا، لأنه كان يرى أنه لا بد من الاستعداد الكامل لمثل هذا العمل خاصةً وأن بلاد الهند بعيدة وبينها وبين بلاد العرب بحر خضم[4].

---

(١) الحجاج بن يوسف: الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد: قائد داهية سفاك خطيب، ولد سنة ٤٠ هـ في الطائف (بالحجاز) ونشأ بها وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبد الله وفرق جموعه، فولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى بغداد في ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الامارة عشرين سنة، وبنى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة، وكان سفاكا سفاحا باتفاق معظم المؤرخين، وأخبار الحجاج كثيرة، مات بواسط سنة ٩٥ هـ وأجري على قبره الماء، فاندرس. انظر الأعلام للزركلي: ٢/ ١٦٨.

(٢) محمود بن سبكتكين الغزنوي: السلطان يمين الدولة أبو القاسم ابن الأمير ناصر الدولة أبي منصور، ولد سنة ٣٦١ هـ في غزنة، فاتح السند وأحد كبار القادة، استولى على الإمارة سنة ٣٧٩ هـ وامتد سلطانه من أقاصي الهند إلى نيسابور، وهو تركي الأصل مستعرب، كان حازما صائب الرأي، توفي سنة ٤٢١ هـ انظر الأعلام للزركلي: ٧/ ١٧١.

(٣) هو عثمان بن أبي العاص بن بشر عبد بن دهمان الثقفي، صحابي من أهل الطائف، أسلم في وفد ثقيف، فاستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على الطائف، فبقي في عمله إلى أيام عمر، ثم ولاه عمر عمان والبحرين سنة ١٥ هـ واستمر في البحرين إلى أن آلت الخلافة لعثمان بن عفان فعزله، فسكن في البصرة إلى أن توفي سنة ٥١ هـ له فتوح وغزوات بالهند وفارس، وفي البصرة موضع يقال له شط عثمان منسوب إليه، وهو الذي منع ثقيفا عن الردة، خطبهم فقال: كنتم آخر الناس إسلاما فلا تكونوا أولهم ارتدادا. انظر الأعلام للزركلي: ٤/ ٢٠٧.

(٤) انظر في هذا المكان: فتوح البلدان للبلاذري، ص ٤٢٠.

واستمر نفس النظام في عهد عثمان رضي الله عنه، ولما كانت خلافة علي رضي الله عنه فإنه أجاز للحارث بن مرة[1] أن يأخذ جماعة من المتطوعين ويتوجه بهم إلى الهند. وقد حمل الحارث ومن معه على الحدود الشمالية والغربية للهند وغنموا أموالًا كثيرةً[2]، وقد استشهد الحارث بن مرة وعدد كثير من المسلمين في معركة قيقان سنة ٤٢ هـ. ثم توجه المهلب بن أبي صفرة[3] سنة ٤٤ هجرية في خلافة معاوية رضي الله عنه إلى الهند وحمل على بنون ثم حمل عبد الله بن سوار العبدي[4] على قيقان. وأرسل زياد بن أبي سفيان[5] في خلافة معاوية سلمى بن محيق الهدلي إلى مكران[6].

---

(١) الحارث بن مرة: هو الحارث بن مرة العبدي، قائد له ذكر في فتوح السند، وكان عمر وعثمان يتخوفان على المسلمين المغامرة في غزو تلك البلاد، فلما ولي علي تقدم الحارث متطوعا بإذنه فأوغل فاتحا وظفر بمغانم سنة ٣٩ – ٤٢ هـ حتى بلغ أرض القيقان مما يلي خراسان من بلاد السند، فتوفي فيها هو وأكثر من معه. انظر الأعلام للزركلي: ٢/ ١٥٧ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري، ص: ٤٢١ .

(٣) المهلب بن أبي صفرة: هو ظالم بن سراق الأزدي العتكي، أبو سعيد، أمير بطاش جواد، ولد في دبا من العراق سنة ٧ هـ ونشأ بالبصرة وقدم المدينة مع أبيه أيام عمر، وولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير، وفقئت عينه بسمرقند، وانتدب لقتال الأزارقة، وكانوا قد غلبوا على البلاد، فأقام يحاربهم ١٩ عاما لقي فيها منهم الأهوال، وأخيرا تم له الظفر بهم، ثم ولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان فقدمها سنة ٧٩ هـ، ومات فيها. انظر الأعلام للزركلي: ٧/ ٣١٥.

(٤) عبد الله بن سوار العبدي: هو من عمال النبي صلى الله عليه و سلم على البحرين ذكره وثيمة في كتاب الردة عن بن إسحاق وانه كان ممن وفى لابان بن سعيد بن العاصي. انظر الإصابة في تميز الصحابة لابن حجر العسقلاني: ٥/ ٩٢.

(٥) زياد ابن أبي سفيان: هو زياد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وهو المعروف بزياد ابن أبيه وبزياد ابن سمية وهي أمه، ولد عام الهجرة وقيل : ولد قبل الهجرة، وكان من دهاة العرب والخطباء الفصحاء واشترى أباه عبدًا بألف درهم فأعتقه واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على بعض أعمال البصرة، وكان أحد الشهود على المغيرة بن شعبة مع أخويه أبي بكرة ونافع وشبل بن معبد فلم يقطع بالشهادة فحدهم عمر ولم يحده وعزله، ثم صار مع علي رضي الله عنه فاستعمله على بلاد فارس فلم يزل معه إلى أن قتل وسلم الحسن والأمر إلى معاوية فاستلحقه معاوية وجعله أخا له من أبي سفيان، واستعمله معاوية على البصرة ثم أسند إليه ولاية الكوفة لما مات المغيرة بن شعبة وبقي عليها إلى أن مات سنة ٥٣ هـ. انظر أسد الغابة لابن الأثير: ١/ ٣٨٩.

(٦) وجدير بالملاحظة أن التاريخ لم يذكر إلا إشارات هذه الحملات المتفرقة التي شنت لفتح الهند في عصر الخلافة =

وقد ظل القادة المسلمون العرب يطرقون أبواب الهند من هذا الطريق حتى زمن الحجاج بن يوسف الثقفي حاكم العراق من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، فبدأت الحملة القوية المنظمة لفتح الهند، وإنما استتب لهم هذا الأمر بيد القائد العربي محمد بن قاسم الثقفي حينما دخل السند فاتحًا سنة ٩١ هـ وشيد أول مسجد في تلك المنطقة، ووضع الأساس لأول دولة إسلامية عربية في شبه القارة الهندية[١]، وذلك في سنة ٩٢ هـ الموافقة لسنة ٧١١ م[٢]. ويعتبر هذا أول فتح عربي في شبه القارة الهندية وتحققت بذلك بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بفتح الهند[٣].

وأما الطريق الثالث الذي بدأ منه السلطان محمود الغزنوي فتوحاته في الهند فقد استمر ثغرا للملوك والفاتحين من الأفغان والترك والمغول وغيرهم من الذين فتحوا بلاد الهند وأسّسوا فيها ممالك وحكومات للمسلمين، إلى أن استمرت دولة المسلمين في شبه القارة الهندية زهاء ثمانية قرون.

وكان الدعاة العرب المسلمون يقومون بنشر الدعوة الإسلامية في أنحاء الهند وخاصة في مواطن المهاجرين العرب الأولى في السواحل الهندية الجنوبية لظهورها بدون أي صدام مع الأديان المحلية ومعتقدات أهاليها، بل وكانت الدعاة المسلمون محلّ احترام وتقدير لدى الحكام المحليين الهندوسيين، وكانوا يهيئون لهؤلاء الدعاة وللذين يعتنقون الإسلام من رعاياهم التسهيلات لبناء المساجد والمدارس العربية والإسلامية ونشر دعوتهم في جو من الحرية والأمان بدون أي اصطدام طائفي وإراقة دماء.

= الراشدة، ولعل السبب فيه أنها كانت حملات من المتطوعين ومناوشات غير منتظمة وأنها لم تكن حربا بالمعنى المعروف، مع أن سيدنا عمر رضي الله عنه لم يستحسن ذلك وشدد في المنع.

(١) راجع للمزيد في هذا المكان: فاتح السند محمد بن قاسم لنسيم حجازي ترجمة الدكتور ظهور أحمد أظهر، قومي كتب خانة، لاهور باكستان.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري، ص: ٤٣١.

(٣) عن أبي هريرة قال: وعدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم غزوة الهند فإن أدركها أنفذ فيها نفسي ومالي فإن أقتل كنت من أفضل الشهداء وإن أرجع فأنا أبو هريرة المحرر - رواه الإمام النسائي في السنن الكبرى كتاب الجهاد باب غزوة الهند (٤٣٨٢)، والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة (٧١٢٨) والإمام البزار في مسنده عن أبي هريرة (٨٨١٩).

واستمرت هذه الحالة السلمية المؤثرة في تطوير الدعوة الإسلامية في ربوع هذه البلاد الشاسعة في المناطق التي دخل فيها الإسلام من الطريق الأول، حتى بعد توسع رقعة الصدام في أنحاء الهند في عهد بعض الملوك العجم الذين قاموا بفتوحات مسلحة وغزوات سياسية لتوطيد الإمبراطورية. وكانوا ينفقون الأموال في الترف ومتع الحياة، فبدأ التعصب الديني والتصادم الطائفي، لأنهم كانوا يقومون بهذه المفاسد الخلقية والاجتماعية والسياسية باسم الإسلام وهو منها بريء. ولم يهتموا بنشر الدعوة الإسلامية السمحة وتنفيذ عدالتها الاجتماعية بل كان منهم من وضع العراقيل في سبيل الدعاة المصلحين الذين كانوا يقومون بنشر الدعوة الإسلامية بالحكمة والموعظة الحسنة ويبنون مراكز النور والعرفان في أنحاء البلاد وينشرون روح المودة والوئام بين مختلف طوائف الأمة الهندية.

ويتحدث الشيخ زين الدين المليباري[1] عن انطباعاته في مليبار في القرن العاشر الهجري على الرغم من انتشار الصدام المتكرر في شتى أنحاء الهند الشمالية: "وليس للمسلمين في جميع ديار مليبار أمير ذو شوكة يحكم عليهم، بل رعاتهم الكفرة يحكمون عليهم بضبط أمورهم وتغريمهم المال إذا صدر من أحدهم ما يقتضي الغرامة عندهم، ومع هذا فللمسلمين فيما بينهم حرمة وعزة لأن أكثر عمارات بلادهم بهم، فيمكنون من إقامة الجمع والأعياد، ويعينون الوظائف للقضاة والمؤذنين، ويعينون في إجراء الأحكام الشرعية بين المسلمين، ولا يرخصون في تعطيل الجمعة فمن عطلها آذوه وغرموه المال في أكثر البلاد"[2].

---

(١) كان الشيخ زين الدين أحمد بن عبد العزيز المليباري (٩٣٨ هـ - ١٠٣٨ هـ) من أجلة العلماء الشافعية في القرن العاشر الهجري، ومن تلاميذ العلامة ابن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٠٩هـ، وصاحب المؤلفات العديدة في اللغة العربية. وكان جده زين الدين بن علي كبار علماء الإسلام في بلاد معبر في جنوب الهند ثم انتقل هو وأسرته إلى مليبار واستقر في بلدة فونّاني (Ponnani) فيها. ومن أشهر مؤلفات الشيخ زين الدين المليباري فتح المعين بشرح قرة العين في الفقه الشافعي وهو من الكتب المتداولة بين العلماء في البلاد العربية وبلاد الشرق الأقصى، وتحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين وهو من أوثق الكتب في اللغة العربية عن تاريخ مليبار القديمة.

(٢) تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين، ص ٣٥.

المطلب الرابع - الهند بعد دخول الإسلام:

كان تأثير الإسلام على الهند تأثيرًا عميقًا، فالاتصال بين الأفكار القديمة والجديدة حمل الهنود على أن يتأملوا ويفكروا من جديد في أسرار هذا الكون ومشاكله الخالدة، لاسيما بعد أن تجردت العقول من موانع التقاليد القديمة. وظهرت أفكار وفلسفات جديدة لتظهر التقارب بين الأفكار الهندوسية والإسلامية.

ولكن هذه العمليات للاستيعاب والتوفيق بين النظامين لم تكتمل كليًا بسبب صعوبات المسافة والبعد حتى بقي تبادل الأفكار والثقافة بين العاصمة وسائر البلاد ناقصا. فالمدن شاهدت عملية الاندماج بين الثقافتين وعوضت الأهمية السياسية للمسلمين رغم قلة عددهم. ولذلك منح المسلمون للثقافة المدنية طابع الثقافة الإسلامية ولونها بفضل ما تتمتع به المسلمون من النفوذ السياسي.

أما المناطق القروية فكانت الأوضاع فيها مختلفةً من المدن، فصعوبة المواصلات مكنت لها من الاحتفاظ ببعض استقلالها حتى تمكن الجمود الذي يلازم الشعوب والمجتمع في المناطق الريفية من توكيد نفسه نظرا لانعدام حركة التبادل الفكري المستمر أو الاتصال الدائم بين السكان. فكان من الطبيعي أن وقع المسلمون في هذه المناطق تحت ضغط أشكال الحياة الهندوسية، فبقيت الثقافة الريفية محتفظةً بطابعها الهندوسي على الرغم مما وقع فيهم من تغييرات دينية واسعة النطاق.

إن دوافع هذا التنسيق والاندماج قد تناولت شتى الميادين، اجتماعيةً كانت أو ثقافيةً أو سياسيةً، فتطورت العادات والسلوك والأزياء والأعياد ووسائل إعداد الطعام والشؤون المنزلية والاجتماعية ووسائل التخاطب بين الشعوب والأجناس بظهور لغات جديدة، كما ظهرت أساليب جديدة في فن المعمار والنحت والموسيقى والرسم والعادات الجماعية والمعتقدات الشعبية[1].

إن الثقافة الهندوسية التي حافظت على روعتها في اتساع نطاقها ومداها فقدت شيئًا من حيويتها الرئيسة بعد اختلاطها بالحضارة الإسلامية إلا أنها احتفظت بعناصر

---

(١) الدكتور همايون كبير: التراث الهندي من العصر الآري إلى العصر الحديث، ص ٨٢-٨٤.

قيمة دائمة للفكر البشري. وكان لا بد للمسلمين من أن يتشربوا روحها بعد أن تم لهم الاتصال بها، وكان التعاون بينهما متناسبًا مع شدة أنشطتهما الدينية. وكان من نتائج هذا التبادل الثقافي ظهور الحركات الإصلاحية داخل الديانة الهندوسية نسبت إلى شنكرا ورامانندا ورامانجا وكبير وغيرهم[1].

المطلب الخامس - آثار النفوذ الإسلامي في المجتمع الهندي:

وقد كان لهذه الحركات الناتجة عن القدوم الإسلامي أثر بالغ في إصلاح المجتمع الهندي في القرون الوسطى ولا سيما المجتمع الهندوسي، لأن الديانة الهندوسية في تلك الأيام كانت عبارة عن بعض المعاني الجافة المتمثلة في بعض الشعائر والطقوس، لا تحمل للمجتمع الحيوية والنشاط ولا التنوير الروحي. وقد منح تعاليم رجال هذه الحركة في نفوس الهندوس روح التجديد والإصلاح حتى تحرروا من قيود الماضي. ويمكن تلخيص هذا التأثير في النقاط التالية[2]:

١) كانت الحركات الإصلاحية واسعة النطاق تشمل نفوذها معظم أماكن الهند، وكان هدفها الأول تجديد الديانة الهندوسية وإصلاحها ونشر روح الثورة داخلها.

٢) وقد كسرت هذه الحركات قيود النظام الاجتماعي المتمثل في طبقات المجتمع الأربع حتى بدأ الناس يشعرون أنهم سواء أمام الله وفي الحقوق.

٣) وقد حاولت الحركات للوصول إلى أهدافها من خلال الوسيلتين العمليتين: إصلاح الهندوسية بالتحرر من قيود الطقوس ونظام الطبقات، ونشر شعور الأخوة بين المسلمين والهندوس.

٤) حاولت بناء الجسور بين الإسلام والهندوسية.

٥) وقد استردت ولاء الطبقات الدنيا في المجتمع بتقريبهم إلى الهندوسية من خلال

---

(١) الدكتور همايون كبير: التراث الهندي من العصر الآري إلى العصر الحديث، ص ٨٤.

(٢) Religion and Philosophy in Medieval India, NCERT, p 134-135

تعاليم المساواة بين الناس، فرفعوا الاحتجاج ضد رهبانية الطبقة البرهمية وتعبيدهم الطبقات الدنيا ومنعهم من ممارسة الطقوس والعبادات كما دعوا الشعب الهندوسي إلى حقيقة أن الله يرحم جميع عباده ويتولاهم جميعا بدون تفرقة بين الطبقات.

٦) كانوا يشجعون التعايش السلمي والتعاون بين الهندوس والمسلمين، فبدلًا من أن يدخل في المعارضة والمخالفة بين المجتمعين حاولوا أن يتفاهموا التعاليم والأفكار والشعائر لتحقيق السلام والأخوة بين الهندوس والمسلمين.

٧) وكان من تأثيرها الكبير في مجتمع القرون الوسطى نشأة وتطور اللغات المحلية، وذلك أن زعماء هذه الحركة كانوا يدعون الناس وينشرون فيهم تعاليمهم في لغة العامة من الناس حتى يستطيع الجميع فهم النصوص الدينية حتى بدأت اللغات المحلية واللهجات تتطور في كل مكان وظهرت فيها المؤلفات الدينية، كما أن بعض المسلمين قاموا بترجمة بعض النصوص الهندوسية من السنسكريتية إلى اللغات المحلية. .

٨) وأخيرًا، من خلال تركيزهم واهتمامهم بالقيم النبيلة والأخلاق الحسنة قاموا بتطوير وتغيير في أفكار المجتمع واتجاهاتهم حتى استطاعوا أن يحولوا الحكام المسلمين إلى تشكيل حكومات وطنية[١].

---

(١) Soceity and Culture, Religious Ideas and Movemnts, IGNOU, p 27-29

الخاتمة: نتائج البحث

وفي نهاية المطاف نصل إلى النتائج التالية التي أسفر عنها هذا البحث المتواضع:

١) كان للهند صلات ثقافية بالعديد من بلدان العالم، وكان البحر أول حلقة تواصل العرب بالهند، فمنذ آلاف السنين كان تجار العرب يأتون إلى سواحل الهند وينقلون منتجاتها وثمارها إلى البلاد العربية، ومنها إلى أوربا عن طريق مصر والشام، وبالتالي كانوا يستوردون البضائع العربية إلى الهند والصين، وكان هذا الطريق التجاري منحصرًا في أيدي العرب لقرون طويلة قبل الإسلام وبعده.

٢) دخل الإسلام شبه القارة الهندية عن طرق ثلاث من الناحية الجغرافية، فالطريق الأول هو شواطئ الهند الغربية الجنوبية الواقعة في البحر العربي التي كانت مركز ارتياد التجار والرحل العرب منذ أقدم العصور في البلاد الهندية.

٣) والطريق الثاني هو مناطق السند الواقعة على شواطئ الهند الغربية الشمالية في البحر العربي حيث دخل محمد بن قاسم الثقفي في سنة ٩١ هـ فاتحا لبلاد السند في عهد حكم الحجاج بن يوسف الثقفي.

٤) وأما الطريق الثالث فهو مناطق الحدود الشمالية الغربية المجاورة لأفغانستان وإيران حيث دخل الهندَ من هذه الطريق البري الجبلي الوعر السلطانُ محمود الغزنوي في نحو سنة ٣٩٢ هجرية الموافقة لسنة ١٠٠١ ميلادية.

٥) وكان الدعاة العرب المسلمون يقومون بنشر الدعوة الإسلامية في أنحاء الهند وخاصةً في مواطن المهاجرين العرب الأولى في السواحل الهندية الجنوبية لظهورها بدون أي صدام مع الأديان المحلية ومعتقدات أهاليها وبدون إراقة دماء، بل وكانت الدعاة المسلمون محل احترام وتقدير لدى الحكام المحليين الهندوسيين. واستمرت هذه الحالة السلمية المؤثرة في تطوير الدعوة الإسلامية حتى قيام فتوحات مسلحة سياسية من قبل بعض الملوك المترفين لتوطيد الإمبراطورية، لم يهتموا بنشر الدعوة الإسلامية السمحة وتنفيذ عدالتها الاجتماعية.

٦) إن الإسلام في الهند تعرض بمرور الزمان للإفراط والتفريط طبقًا لهوى بعض

المهاجمين الذين لم يراعوا الأصول والقواعد التي قامت عليها الحروب الإسلامية، وقد ترتب على هذا الفساد من الجانب الاجتماعي والسياسي، ولم تكن الديانة الهندوسية أيضا سليمة من التعرض للحذف والإضافات ومن النظام الطبقي الاجتماعي، إلا أن بعض الرجال الهندوسيين قاموا بالإصلاح داخل ديانتهم.

المصادر والمراجع

١) الهند القديمة حضاراتها ودياناتها: د. محمد إسماعيل الندوي، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٠.

٢) قصة الحضارات: ول وايريل ديورانت، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨.

٣) التراث الهندي من العصر الآري إلى العصر الحديث: د. همايون كبير، ترجمة البروفيسور ذاكر الرحمن، مراجعة عمر الأيوبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبوظبي، ٢٠١٠.

٤) تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين: أبو يحيى زين الدين بن على بن احمد المعبري المليباري الشافعي ، مكتبة الهدى، كاليكوت، الهند، ١٩٩٦.

٥) فتوح البلدان: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تعليق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٥.

٦) الإصابة في تمييز الصحابة: أبو الفضل أحمد بن علي حجر العسقلاني الشافعي ، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.

٧) الكامل في التاريخ: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشهير بابن الأثير، طبعة بولاق، القاهرة، د.ت.

٨) أسد الغابة في معرفة الصحابة: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشهير بابن الأثير، طبعة بولاق، القاهرة، د.ت.

٩) الدعوة الإسلامية وتطورها في شبه القارة الهندية: د. محي الدين الآلوائي، دار القلم، دمشق، ١٩٨٦.

١٠) الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

Khushwant Singh: A History of the Sikhs, 2 Volumes, Oxford University Press, New Delhi, India, 2010.